

الرحمة و المسؤولية عند أبي لبابة رضى الله عنه

لفضيلة الشيخ محمد الشاذلى النيفر

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على رسول الله و آله و صحبه
يتصف الاسلام ذلك الدين الخالد بانه كون في المسلمين أمة
متحضنة باوصاف ما اتصفت به اية امة من الامم ، و هم اصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم الذين استطاعوا بالتكوين الاسلامى ان
ينشئوا عالما جديدا ، و ان يحدثوا تغييرا لم تر الدنيا على امتداد
عمرها مثله ولن ترى مثله ، و انما اذا وقع السير على ذلك القرار تأتى
الاستطاعة ان تظهر القيم الحقيقية و ان يكون للناس وزهم في الحياة
و ان يكون لهم تأثير فعال على ايجاد مجتمتع انساني يتمتع بالحصانة ،
ويدرا عن نفسه الادواء التي تصيب الامم حتى تكون اثرا بعد عين
وعرضة للحين ، و هذا التكوين الاسلامى ليس بالامر السهل تحصل
عليه المسلمون بين عشية وضحاها و تاتي لهم في مثل ارتداد الطرف
كاحضار عرش بلقيس و انما حصل لهم بتلك التربية الاسلامية الصحيحة
والنفسية العملية الاسلامية التي عاشها المسلمون فيما قبل الهجرة
و فيما بعدها ، و هو ما جاء به القرآن المجيد ذلك الكتاب المنزل تبصرة
واحياء ، و نعتا و نماء ، فهز العقول و بعثها من سباتها العميق فانبتت
انسانية مثالية وجدت امة من الناس كانت في الحياة خير نبراس .
و هو ما نبع من الرسول الكريم عليه افضل الصلاة و اتم التسليم
حين كان بين ظهرائهم يبيث فيهم التعاليم الصحيحة و ينشر هداية الله
الحقة و يدعو الى سبيل ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة ، و يعلمهم
و يذكهم ، و يتلو عليهم آيات الله خير اصلاح عرفه البشر ، و كان بذلك
للمسلمين عامة ، و للعرب خاصة ذكر جلب لهم الاحن حقا و بغيا .

ان الفلسفة التربوية الاسلامية أنشأت في المسلمين حصافة رأى
 وبداهة في مجابهة المواقف ، و صلابة في الرأى المتخمر حتى لا تأخذهم
 في الحق لومة الاثم ولا يدعوهم الضعف النفسى ان يكونوا خورا
 مستضعفين بل يكونوا في جزم وعزم مهما كانت صلابة الموقف
 و مهما كان القصاص العدل ، و بالاخص اذا كان قصاصا من الذين
 اخذهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدين و تساهل معهم التساهل كله
 كما اثبتته التاريخ الاسلامى فانه انبأنا (ان النبي صلى الله عليه وسلم)
 لما هاجر الى المدينة كان يجب اسلام قريظه و النضير و بنى قينقاع
 و قد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه و يكرم صغيرهم
 و كبيرهم و اذا كان منهم قبيح تجاوز عنه و كان يسمع منهم).

هذا ما ذكره الزمخشري في اسباب نزول فاتحه سورة الاحزاب
 بسم الله الرحمن الرحيم (يا ايها النبي اتق الله و لا تطع الكافرين و
 المنافقين ان الله كان عايما حكيما).

ابو لبابة فى موقفه :

و هذا التكوين هو الذى نجد مثله فى أبى لبابة رضى الله عنه
 فى موقفه مع بنى قريظة ، فتجلى لنا المثالية الحازمة فى الموقف الدقيق
 و تتجلى العواطف المزدحمة .

ان بنى قريظة و اخوانهم زادهم التساهل الاسلامى تنموا على
 تنمرهم و لم يجد قيهم الملاينة فكادوا للاسلام فى الظل و الخفاء ،
 و تفننوا فى الكيد له ، و لولا حصانة ابى لبابة لانهار بين ايديهم فى
 تلك الرقعة التى آوت الدعوة الاسلامية وقتها من هجوم قريش خاصة
 و العرب عامة ، فالاسلام الذى جابه اعظم مقاومة فى ذات النبي صلى
 الله عليه وسلم و فى جانب اصحابه مما اصبحت الاقامة معه لا تطاق
 بمكة . لم يكن له بد من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم مع القلة

من المؤمنين الى المدينة المشرفة التي فتحت بالقرآن وفي المدينة كانت قريش تلاحق الدعوة الاسلامية ، والعرب يظاهرونها عن قوس واحدة ، فأصبحت المدينة قلعة الاسلام و مأواه وهي كما عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن اهلها في دعائه و مناشدة ربه : اللهم انى انشدك عهدك و وعدك اللهم ان تهلك هذه الهضبة اليوم فلا تعبد .

ومع هذه المحاصرة من الخارج المطوقة للمدينة المشرفة كان بنو قريظة و اخوانهم من النضير و بنى قينقاع يكيدون للاسلام ظلما يهضموا هذه القوة التي حلت بين الاوس و الخزرج و التي ستفتك منهم البقرة الحلوب فلم تمر بهم فرصة دون ان يغتتموها فان كانت هضما للاسلام بالطعن فيه اشاعوها و كيفوا لها الاجواء و كذبوا على الله ، و ان كانت حربا على الاسلام سدّدوا ظعنهم في نحور المسلمين ، فلا مطمع في كف ايديهم عنهم .

و بلغ يهود بنى النضير الكيد ان تأمروا على اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاهم في اعانة المسلمين على دية الكلبين اللذين قتلهما عمر بن امية الضمري فقالوا نفعل ما احببت و كان جالسا الى جنب جدار من بيوتهم ، فهموا بالغدر بطرح صخرة من جدار البيت فاطلع صلى الله عليه وسلم على ما هموا به فنفض في اسراع كمن دعتة حاجة مستعجلة ، لحق بالمدينة ، فامرهم عند ذلك بهدم مساكنهم لغدرهم فاستجابوا اول الامر للمبارحة ، ولكنهم نكسوا على رؤوسهم و امتنعوا من الاستجابة و تحصنوا بأوطانهم ، فعاجلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحصار ، و رغم ذلك أذن لهم في الهجرة مع ما احتملت ابلهم من الات الحرب ، فخربوا حصونهم و ديارهم بمراى و مسمع من المسلمين الذين لم يغيروا عليهم صنيعهم محافظة على العهد حتى انجلوا .

و عوض ان يكون هذا الدرس زاجرا رادعا لبنى قريظة الذين

كانوا على عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم نقضوا العهد وتآلبوا ضد المسلمين حين اشتد البأس ، وكان المسلمون في موقف حرج وليس هناك أبلغ مما وصفه الله به : (اذ جاؤوكم من فوقكم ، ومن اسفل منكم واذ زاعت الابصار وبلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنون) (١٠) الاحزاب . فتعبأت عطفان فوق الوادى من قبل المشرق ، وقريش من اسفل الوادى من قبل المغرب .

بنو قريظة وغدرهم :

انه موقف يدعو الى الشفقة ، فان لم يدع الى المساندة فلا أقل من كف الاذى . ففي هذا الموقف الحرج تقضت بنو قريظة المواثيق وأرادت ان تضرب الاسلام الضربة القاضية و تطعنه من خلف ، و لكن الاسلام وجد من الاعوان المخلصين ما فرج الله بهم الكربة ، و أجلى بهم الشدة .

بعد موقفهم الذى كاد يطيح بالاسلام وقعت غزوتهم المساة بغزوة بنى قريظة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ و هو وان كان حكما شديدا الا انه تفرضه الظروف التى يعيشها المسلمون ، و فداحة الخيانة من بنى قريظة الذين كادوا بخيانتهم ان يقضوا على أمة كاملة و ان يقبروا الدين الحق فى مهده .

قبل ان تنزل بنو قريظة على حكم سعد ابن معاذ استشاروا أبا لبابة فانعطفت نفسه عليهم رحمة للنساء و الصبيان الذين اندفعوا فى وجهه باكين فتأثر بذلك الموقف الخاص بتلك اللحظة ساهيا عن إجرامهم الكبير فأشار عليهم ان لا ينزلوا على ذلك الحكم لآن النتيجة هى الموت . انها المامة مرت به فغل عن أعمال بنى قريظة المبنية على المك و الخديعة و اغتنام مواطن الشدة للضرب بنذالة و فقدان للانسانية فأف بهم ان ينالهم القصاص العادل و هو موقف يقفه الانسان من

الحرم حين يناله القصاص فتأخذه الرحمة والانسانية و انما هو مجسم من خديعة و لؤم و دوس لاقل الواجبات الانسانية .

عنصر التعارض النفسى :

و ينساق الكلام على الموقف الذى وقفه ابولبابة و تناوله القرآن المجيد فى سورتين فى عنصرين اساسيين اولهما : هذا التعارض النفسى بين القصاص العادل و الشفقة ، و ثانيا نهما : تركز التربية الاسلامية فى النفوس حتى تشعر بادق أنواع الخطأ فتؤدب نفسها بنفسها شعورا بمحبة البعد عن الخطا حتى لا يعثر الحق و ينكب فى النفوس .

وجريان مثل هذا فى النفس يدل على سموها النفسى و تكامل الشخصية و هو ما حدث عن ابى لبابة صاحب المواقف المشكورة فى الاسلام فهو من أبرز من يعنى بترجمته و براز هذه الناحية التى تناولها القرآن ، اظهارا لتلك الشخصية التى لها الاحساس الدافق بالانسانية مع تقدير الموقف فليس هى بالشخصية ، المجردة المنساقه انسياقا لا تدبر معه و لا نظر كما هو شأن من ضعف شخصيته ، فلا مواقف له تدل على انه اذا صنع ما صنع كان فى صنعه محيطا بالجوانب كلها دارسا لها فى نفسه مختارا لها بين ما تضارب عنده ،

ترجمة ابى لبابة :

فأبو لبابة أحد اولئك الممتازين و الذى خصه القرآن بما نزل فيه وله أيداد على الاسلام تؤكد لنا انه ما وقف ذلك الموقف الا لما ذهبنا الى التعرف عليه ما يبين الخطوات التكوينية الاسلامية

و اسم ابى لبابة يشير على وزن عظيم كما ذكر الحافظ ابن حجر فى الاصابة فى اسماء الصحابة ، و منته فى اسماء الاستيعاب فى اسماء الاصحاب لا بن عبد البر بدون نص على انه كعظيم و هو ما صدر به

الكثير لمن ترجم للصحابة لانه اختلف في اسمه بين ما ذكر، و بين انه رفاعه. و الكشاف للزخشرى في تفسير سورة الانفال في ذكر قصته : ارسل الينا ابا لبابة مروان بن عبد المنذر، والذي ذكره باسم رفاعه و ابن اسحق كما جاء في مختصر سيرته لا بن هشام .

و مواقف ابي لبابة في الاسلام لا تنسى فهو احد النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينة و هي العقبة الثانية و ذكره ابن اسحق باسم رفاعه و لم ينسبه لهذا من حقق سيرة ابن هشام حيث لم تذكر كنيته و لم يذكر باسمه الذي اشتهر به و هو بشير، فلم يذكره في الفهرس. و ينازع ابن هشام صاحب مختصر السيرة ابن اسحق بان اهل العلم يعدون فيهم ابا الهيثم بن التيهان و لا يعدون رفاعه و يستدل على ذلك بما أنشده كعب ابن مالك في اصحاب العقبة فانه ذكر النقباء كلهم و مطلع قصيدته :

ابلق اييا انه قال رأيه

وجاء غداة الشعب و الحين واقع

و في هذا البيت الحزم ، الى ان يقول في ذكر ابي الهيثم :

ابو هيثم ايضا و في بمثلها

وفاء بما اعطى من العهد خانع

فذكر كعب فيهم ابا الهيثم بن التيهان و لم يذكر رفاعه ،

و شهد ابا لبابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد و منها بدر. و ذكر ابن هشام في مختصره لسيرة ابن هشام في مختصره لسيرة ابن اسحق ان النبي صلى الله عليه وسلم استعمل عمرو ابن ام كلثوم على الصلاة ثم رد ابا لبابة من الروحاء و استعمله في المدينة .

و ذكر ابن هشام هذا مرة اخرى نقلا عن اسحق : زعموا ان ابا لبابة بن عبد المنذر و الحارث بن حاطب خرجا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم فرجعهما ، وامر ابا لبابة على المدينة فضرب لهما
بسمين في بدر .

وعلق ابن هشام على ذلك بانه ردهما من الروحاء ثم قال : واسم
ابى لبابة بشير ، وهذا يؤيد ان اسمه بشير كما قدم لا رفاعه ولا
مروان ووتكرر ذلك من ابن هشام في سيرته .

و كما استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة
بدر التي كانت في السنة الثانية من الهجرة كذلك استعمله صلى الله
عليه وسلم في غزوة السويق التي طلب فيها صلى الله عليه وسلم
ابا سفيان حين اغار على المدينة وكانت هذه الغزوة في السنة الثانية
من الهجرة ، و كذلك استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة
في غزوة بني قينقاع .

وبجانب هذا شهد المشاهد مع الرسول فشهد احدا وما بعدها
من المشاهد وكانت معه رؤية بنى عمرو بن عوف ، في غزوة الفتح .

ولما حذر بنى قريظة من النزول على حكم سعد بن معاذ نزلت
فيه آية الانفال تقريبا وتحذيرا وهي قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا
لا تخونوا الله و الرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون) (٢٨)

خبر تحذير بنى قريظة هو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عليه
ان يأتى بنى قريظة وقد كان يظن انه لا قبل له بهم ولا قدرة له عليهم
لتحصنهم بحصنهم ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه معرورى
فراه على كرم الله وجهه فقال ! يا رسول الله لا عليك الا تأتيتهم فانهم
يشتمونك فقال له انها ستكون تحية فلما خاطبهم النبي صلى الله عليه
وسلم قالوا لا ننزل على حكم محمد ولكن ننزل على حكم سعد بن معاذ
فحكم عليهم ، وحين طلبوا استشارة أبى لبابة اشار اليهم حين قالوا :
ننزل على حكم سعد بن معاذ ان لا تفعلوا فانه ألمح مشيرا الى حلقة

حين اجهش اليه النساء و الصبيان بالبكاء ، ثم قال ابو لبابة والله ما زالت قدمي حتى علمت اني خنت الله ورسوله فنزلت هذه الآية ، وقيل هي والتي بعدها فلم يرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم وشد نفسه الى سارية من سواري المسجد وقال و الله لا أذوق طعاما ولا شرابا و ربط نفسه بسلسلة ربوض الثقيلة - بضع عشرة ليلة حتى كاد يذهب بسمعه و بصره .

وفي رواية كانت ابنته تحمله اذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته ثم يأتي فترده و حلف لا يحل نفسه حتى يحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما لو جاءني لاستغفرت له فأما اذ فعل ذلك فما انا الذي أطلقته حتى يتوب الله عليه ، فانزلت توبته سحرا في بيت ام سلمة - و هي ام المؤمنين واسمها هند القرشية توفيت سنة احدى وستين و هي آخر امهات المؤمنين موتا - قالت ام سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر يضحك فقلت يا رسول لم تضحك ؟ اضحك الله سنك ، قال تيب على ابي لبابة . قالت افلا أبشره يا رسول الله ؟ قال : يا ابا لبابة ، ابشر فقد تاب الله عليك فسار الناس ليطلقوه ، فقال لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده ، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح حمله ، فعاهد الله أن لا يطابني قريظة أبدا . وقال لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا . وطلب الانخلاع من ماله كله صدقة لله ورسوله . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجزيك يا ابا لبابة الثلث .

اسطوانة أبي لبابة :

وهذه الاسطوانة التي ربط فيها ابو لبابة نفسه تعرف الى اليوم باسطوانة التوبة و باسطوانة ابي لبابة و هي التي كان النبي صلى الله

عليه وسلم يصلي اليها نوافله . وكان صلى الله عليه وسلم اذا صلى الصبح انصرف اليها وقد سبقه اليها الضعفاء و المساكين و اهل الضر و الضيفان و المؤلفة قلوبهم و من لا بيت له و تحلقوا بعضها دون بعض فينصرف اليهم من مصلاه و يتلو عليهم ما أنزل عليه، و يحدثهم و يحدثونه و فيهم انزل : (و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه الآية ٢٨ (الكهف) .

و روى البيهقي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا اعتكف يطرح له فراشه أو سريره إلى اسطوانة التوبة مما يلي القبلة يستند اليها ، و هناك أسطوانة اخرى كان يوضع عندها سريره صلى الله عليه وسلم ، و اسطوانة التوبة مكان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه و هى الثانية من القبر الشريف و هى الرابعة من المنبر و الثالثة من القبلة ، و الخامسة من الرحبة و هى بين اسطوانة عائشة و الاسطوانة اللاصقة بشباك الحجره ،

سبب ربط نفسه :

و سبب ربط نفسه بها اختلف فيه فروى ما تقدم من اشارة الى بنى قريظة و روى انه لما تخلف عن غزوة تبوك التى تعرف بغزوة العسرة . و هى فى رجب سنة ٩ - و تبوك . موضع بين وادى القرى و الشام . و هذا ما اعتمده ابن عبد البر فى الاستيعاب ، و اما ابن هشام فى السيرة فلم يذكره مع الذين تخلفوا فيها و ما اعتمده ابن عبد البر هو ما ذكره ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (و آخرون اعترفوا بذنوبهم) قال : كان فى المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و فيه نزلت الآية ، و نفر معه سبعة أو ثمانية أو تسعة تخلفوا عن تبوك و ربطوا أنفسهم بالسوارى و قال مجاهد : انها نزلت فى أبى لبابة خاصة فى شأنه مع بنى قريظة ذكره الطبرى .

وما ذكره الطبري عن مجاهد هو ما اقتصر عليه ابن هشام كما تقدم حيث قال : أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه أمراة في كل وقت صلاة . . . فيما حدثني بعض اهل العلم .

والآية التي نزلت في توبته قول الله عزوجل : (وآزرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) الآية ١٠٢ (التوبة) .

لكن المعتمد عند الجمهور ان الآية نزلت في شان المتخيلين عن غزوة تبوك و كانوا ربطوا انفسهم كما فعل ابو لبابة و هذا صريح في ان ابا لبابة لم يكن معهم .

مكان وفاته :

وفي مكان وفاة أبي لبابة البحث متسع و للتاريخ مجال و أى مجال فالنصوص المشرقية و الاندلسية تكتفى بانه مات في خلافة على كرم الله وجهه و في بعضها انه مات بعد الخمسين ، و لا تذكر مكان وفاته كالاستيعاب و الاصابة . فلا يبعد ان يكون مات بافريقية اذ لا تصادم بين ما جاء في هذه النصوص و بين موته بها .

و هذا الموضوع يحتاج الى تحقيق تاريخي يؤيد به ما ذهب اليه البرزلى في ترجيح كونه دفين قابس في هذا المكان ، فوجود هذا المدفن لابي لبابة مقطوع بانه من القرن التاسع او قبله .

دوافع الرحمة :

ثم ان الدافع الذي دفع بابي لبابة لان يقف موقفه المذكور هو عند بعض المفسرين ان له اموالا و اولادا في بني قريظة ، فذلك هو العامل له على ملاينتهم و نزل فيه قوله تعالى في سورة الانفال : (واعلموا انما اموالكم و اولادكم فتنة و ان الله عنده اجر عظيم) (٢٨) و الزمخشري ضعفه و نعم هذا التضعيف .

ثم ان المراد بالفتنة الاختبار و الامتحان فالاموال و الاولاد تكون ليلو الله بها كيف تحافظ فيها و فيهم حدود الله .

ومن القريب ان الدافع الحقيقي هو ما رآه من حال النساء و الصبيان و يشهد له ما ذكره القسطلاني في المواهب اللدنية من ان بنى قريظة حين ايقنوا بالهلاك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابعث الينا ابا لبابة رفاعة بن عبد المنذر نستشيره في امرنا فارسله اليهم ، فلما رآوه قام اليه الرجال و جهش اليه النساء و الصبيان فيكون في وجهه فرق لهم و قالوا يا ابا لبابة اترى ان ننزل على حكم محمد قال : نعم . و اشار بيده الى حلقه اى انه الذبح . (١)

والقسطلاني في المواهب يتحرى و يتجمع الروايات فما ذكره من ان الحامل له على اشارته بيده هو رحمته لهم لما رآهم عليه من الحزن و الخوف تطمئن له النفس غاية الاطمئنان .

فأبو لبابة انساق مع العواطف اللينة التي كونها الاسلام و نماها في النفوس و كيف لا يكون ابو لبابة في رقة و شفقة و رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب المثل فيهما ، سيرته مليئة بمواقف الرحمة و الرأفة و هما فيه كما وصفه الكتاب الكريم .

(١) لا يستغرب هذا من حيل اليهود الماكرين حين يشاهدون الروح ، او يريدون النفوذ الى هدف لهم شرير ، فتراهم يلجأون الى وسيلة ترقيق قلوب الناس عليهم بابراز نواحي ضعفهم و تضخيمها امامهم بالوان الدعاية المؤثرة التي منها البكاء المادى و المعنوى كما نشاهد حالتهم اليوم و سياستهم الماكرة ذات الوجهين مع العرب الذين يضربونهم هم — اى يضربهم اليهود — و يجلونهم عن ديارهم ثم يسبقونهم البكاء و بالشكوى و الدعاوى بانهم مدافعون ناشدو سلم و انهم ضعفاء امام قوة العرب العاتبة فلا بد ان تنصرهم الدول الكبرى استبقاء على حياتهم و دويلتهم المحصورة من كل جانب و التي تمثل الديمقراطية الغربية الى آخر احا بيلهم و شباكهم الاحتيالية التاريخية التي يستدرون بها العطف عليهم من القلوب الضعيفة المخدوعة باساليبهم الخبيثة المناقفة . (عن المنهل الغراء)

في سورة التوبة: (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (١٣٨)

و تربية الرحمن للنفوس في الاسلام لم تقف عند حد الانسان بل تعدته الى الشفقة على الحيوان ففي الشفاء عن عائشة ام المؤمنين رضی الله عنها انها ركبت بعيرا وفيه صعوبة فجعلت تردده فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: عليك بالرفق. ان من تربى هذه التربية الاسلامية التي سلت الشدة من القلوب و زرعت فيها الرحمة و الرأفة اذ رأت منظرا مثل ما رآه أبولبابة نساء و صبيانا ينتحبون، و هم في حال ترقق الاكباد كيف لا تحن نفسه و كيف لا تود لو ان هناك انقاذا لهذه النفوس الضعيفة برحمة رجالها و انجاتهم من الموت. و هذه العاطفة تتحكم حين يكون النظر مقصورا على جانب واحد و هو الحال الحاضرة دون استعراض للتاريخ الذي أدى بنى قريظة الى هذه الحال كما استهلنا به فان الاسلام فتح لهم صدره و اقرهم في أراضيهم و أموالهم، و كانت نظرتهم اليهم نظرة عطف و تساهل لكونهم اهل كتاب، و هي غير نظرتهم الى المشركين الذين كانوا في جاهلية طامسة و حياة لا يمكن ان يقرروا عليها، و هذا التفتح الاسلامي في الصدور لم يقابله بنو قريظة و من قبلهم اخوانهم بتفتح مثله بل قابلوه بما يدل على لؤم نفس و انطواء على خبث و كيد للاسلام. و ضربه من خلف حين سنحت الفرصة رغم ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بنى قينقاع و مع بنى النضير الذين رغم تأمرهم على قتل الرسول عفا عنهم و صفع و سمح لهم بالانجلاء و مع ذلك لم تفارقهم الخساسة فهدموا مساكنهم حتى لا ينتفع بها المسلمون كما ذكره الله تعالى في سورة الحشر (يخربون بيوتهم بايديهم و ايدي المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار) (٢) اما تخريب المؤمنين فهدم اسوار الحصن و اما تخريب بنى النضير فللببوت لئلا تبقى مساكن مبنية يسكنها المسلمون

فهدموها شحا بها ، و امتناعا من سكنى المسلمين بها و مع ذلك سمح لهم المسلمون بان يحملوا ما قدروا على حمله من الخشب و الاعمدة (و لولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ، (٣)

من لا تجدى فيهم الرحمة :

و رغم جمعهم بين الخيانة و الشح تركهم المسلمون في حرية كل هذا لم يمنعهم من التغلب على العواطف الخبيثة حتى يقفوا موقف المحايدين لا الكائدين و يكفوا باسمهم و ينطووا على انفسهم .

و بالنظر لهذه المواقف المخزية المتكررة و مقابلتها بالفتح الاسلامي تتبدل نظرة الرحمة و الشفقة على النفس لا هؤلاء ، اذ في تركهم قضاء على النفس اذ انهم لا تطيب لهم الحياة الا بالقضاء على الاصلاح الانساني و قد تذهب الظنون الى ان اخوانهم بعد هذا الموقف مع بنى قريظة قد حدوا من مكرهم و الكيد الى الاسلام ، ولكن في الحقيقة ان الامر ليس كذلك بل لهم موقف غدر في غزوة تبوك و هي في السنة التاسعة من الهجرة أى بعد غزوة بنى قريظة بسنوات اذ هي في السنة الخامسة . فان اناسا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فبعث اليهم النبي صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبد الله في نفر من اصحابه و امره ان يحرق عليهم بيت سويلم ففروا حتى أنشد بعضهم .

سلام عليك لا أعود لمثلها

اخاف ، و من تشمل به النار يحرق

موقف الموازنة :

و بالطبع ان هذا الجانب الثاني ينقدح في النفس و هو الذى جعل أبا لبابة يقول : ” فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت انى

قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم“

انها لموازنة دقيقة من أبي لبابة رضى الله عنه بين موقفين تحار لهما العقول : موقف الشفقة وموقف التطهير الذى عمل له الاسلام فى شتى النواحي فقد حرص الاسلام على تصفية المجتمع كما جاءت به سورة النور كالدعوة الى غض البصر لانه الرائد الى ما وراءه . وكما حرص الاسلام على ذلك التطهير حرصا على بقاء جذوة الروح الاسلامية فى اتقادها وشمعتها ولهذا شذب العنصر الذى لم يجد فيه الاحسان فضلا عن قبول الايمان ، وحين شعر ابو لبابة بالموقف الثانى وان كان فى محل توازن ذهبت نفسه الى ان عدم مراعاته خيانة ، وأنبا الله انها ليست خيانة واحدة بل هى ثلاث خيانات لان خيانة الله غير خيانة الرسول و خيانة الرسول غير خيانة الامانة .

وتضارب العواطف فى النفس ينبىء ان هناك نظرة بعيدة وان المسلم فى مواقفه ليس مرتجلا يذهب مع العاطفة بل المسلم فى مواقفه مترو ، وغير مرتجل يجمع بين العواطف يستخلص منها ما ينتجه النظر الصحيح وما تأتى به الروية ، ولو لا هذه الموازنة المبنية على بعد الغور فى النظر و التى تجعل من الشخص الواحد متقدما متأخرا ، ثم تجعله يستقر بعد ان يتبين ان الشفقة ممن سخروا من الشفقة واستهانوا بالعهود واستغلوا استحكام الشدة لينقضوا على من أحسن اليهم وعفا عنهم ومكنهم من العيش فى حرية هى الخور بعينه ، ولو لا هذه الموازنة لما رأيت فى المسلمين رجالا هم فيصل الحياة .

فالضمير الاسلامى يزن الاشياء و يقدرها حق قدرها فليس هو بالمستضعف وليس هو بالغليظ وانما هو ضمير متركز على محاكمات نفسية دقيقة تنظر بمنظار الحقيقة فلا تخطو الا على بينة من امرها حتى فى الساعات الحرجة مثل موقف ابى لبابة حين استشرته بنو قريظة .

فهذه المواقف لولا تلك الاشعاعات المستقرة في هذه النفوس الطاهرة المليئة بالايان الصادق والحيوية لكان غير ذلك ، وقد ظهر في هذا الموقف ان المحاكمات النفسية في نفس المسلم اذا حكمت استجلبت الوقائع و استخلصت حكمها ليكون حكما بعيدا في مداه فليس هو مجرد موقف فرضته الظروف فحسب غير منظور فيه الى ما يكتنفها يتبادر الى الفكر بأنه الاولى بل ما ينقذ في نفس القادح ينقذ في النفس التي تقف موقفا اما ان يبدل التاريخ واما أن يدع الفساد يستشري و الداء يستفحل في تلك الامة ، والامة حملها الاسلام ذلك مشعل الانتقاذ و الخروج بالانسانية من طور جمدها و نهي فيها الاستغلال .

و كاني بالواقف في مثل هذا الموقف أستشعر ان امثال هؤلاء الذين في يثرب قد تعودوا ابتزاز الاموال من غيرهم و تسخيرهم لمصالحهم الجشعة لا ينفكون عن الكيد ، ولو وقع اجلاؤهم فانهم يتصلون بالناقمين و المتألمين على الاسلام و الحسدة الحاقدين و يعيدون كرة الاحزاب مرة اخرى و لعلمهم في كرتهم الثانية يفعلون المستحيل تحقيقا لما يشفى تلك النفوس المريضة ، ولو يمكن الله لهم في يثرب و حققوا احقادهم و ما تمليه من خبث ، لم تقم للاسلام - ذلك الاصلاح الشامل للبشرية - قائمة . و لكانت يثرب مسرحا يفنى فيه المسلمون عن آخرهم فليست القسوة من طبيعة المسلمين و انما هو القصاص العادل الذي لا معدل عنه .

الشعور بالمسؤولية :

و العنصر الاساسي الثاني في موقف ابي لبابة رضی الله عنه هو الشعور بالمسؤولية و هي تلك الروابط التي تنتظم بها العلاقات بين الفرد و مجتمعه و هي روابط متنوعة ليست في درجة واحدة . . . فمن الروابط

ما يكون الاخلال به مضرا مضرة ما ، ومنها ما تكون مضرته عظمى ولهذا يختلف رد الفعل حين الاخلال شدة وضعفا ، وكذلك المخلون على نوعين : مخلون عن فهم خاطئ ومخلون على فهم خاطئ ومخلون مستهترون بالمسؤولية ودائسون للكرامة الانسانية فهم في اخلالهم محطمون . وبالطبع ان الجزاء ليس واحد لهؤلاء واولئك بل هو مختلف حسب الدوافع و الاخلال ثم ان المسؤولية ليست بواحدة بل هي متنوعة في ذاتها . ومما اعتنى به الاسلام وربي عليه بالدروس القولية و الفعلية - المسؤولية الادبية و ادمج ضمنها المسؤولية الاجتماعية لنظرة سلمية في الاسلام ، و حتى الجزاء و ان أوكله الى القانون الاسلامي الرادع لكنه كان يستعمله بقدر وبالاخض مع الذين انعم الله عليهم بالهداية و امدوا الدعوة بخدمات لاتنسى وبذلك كسب ضمائرهم تكسبها اية دعوة و هي كذلك عاجزة عن اكتسابها لها الا اذا سلكت الطريق المسلوكة من الاسلام . و من هنا ندرك سرا لا تدركه العقول القاصرة في قوله صلى الله عليه وسلم في حق حاطب بن ابي بلتعنة رضى الله عنه من حديث على رضى الله عنه مما اخرجه البخارى في صحيحه : انه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا قال . اعلمو ما ششتم فقد غفرت لكم . فانه ليس لطلاق عنا ، لان يفعل البدرى ما يشاء من غير ان يكون محاسبا على اعماله فان الاسلام من اصوله الاساسية ان الحدود اذا بلغت الحاكم لم تسقط و ليس هناك احجام في تنفيذها و اما هو ايكال الى الضمير و المسؤولية الادبية بدليل ان الله تعالى انزل بعد ذلك في حادثة حاطب في المحنة : (بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالموودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق (١) فان هذه السورة قد قررت اصول المعاملة مع الاعداء فلا يجوز ان يتخذوا اولياء تلقى اليهم الموودة مع تعليل تلك بالاختلاف

بالمبدء الذى ليس وراءه مبدا اعلى منه هو الايمان : (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ثم ان الاعداء ضايقوا الرسول صلى الله عليه وسلم وضايقوا المسلمين مضايقه لا تطاق حتى ألجأوهم الى الخروج : (يخرجون الرسول و اياكم ان تؤمنوا بالله ربكم) ثم أركنهم الى ما هو اعلى من المسؤولية الادبية وهو ارضاء الله : (ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى).

و استمرت السورة فى التكوين فذكرت الناس بابراهيم عليه السلام و الذين معه حيث فصموا عرى الارتباط مع قومهم : (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم و الذين معه) اذ تبرأوا من قومهم و أعلنوها عداوة صريحة (و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضا ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده)

ولهذا روى سيدنا على كرم الله وجهه الحديث رواه بذيوله فذكر قيام سيدنا عمر بن الخطاب بإتمر النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل حاطب ابن ابى بلقعة لما ارسل كتابا لاهل مكة قبل حركة النبي صلى الله عليه وسلم اليها عام الفتح يخبر ببعض ما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم من الغزو فارسل النبي وراء من حملته — عليا و الزبير فادركا الطعينة (وهى المرأة فى اليهودج) و أخذوا منها الكتاب و بعد أن ذكر موقف عمر و ما اجابه الرسول قال : فانزل الله السورة (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى عدوكم اولياء) الى قوله : (فقد ضل سواء السبيل) البخارى ج ٥ ص ٢٩٧.

فالا سلام ربي هذه الضمائر التى تشعر بالمسؤولية الادبية فكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و هم بشر اذا احسوا باخلال المسؤولية تراهم يقومون بأنفسهم بالقصاص من انفسهم اذ هو أمر تخضع له الارادة لا يعامل أجنبي معاكس للارادة نفسها فمع ما فى المسؤولية الادبية من ضمير حساس حاكم قسط لا يشعر الخاضع للمسؤولية الادبية بذوبان شخصيته و فقدان استقلاله بل هو الاستقلال

الذاتي عينه اذ لا سيطرة على الارادة بل الارادة تناقش نفسها بنفسها وهو ما توسع فيه الصوفييه في المحاسبة النفسية ، فالكرامة البشرية محفوظة والاستقلال النفسى بعيد عن أن يناله قهر و انما هنا و خز الضمير يدعو الى الندم ، حتى ان المخل بالمسؤولية لا يستطيع ان يرى وجوه الناس و بالاخص من تقده النفوس و تحترمه ، كأنما يرى في تلك الوجوه اخلاله و تقصيره فيتحاشى ان تراه .

و كيف لا يكون المسلمون عموما و الصحابة خصوصا كذلك و قد جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا قوله : (كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته) ؟ و هذه المسؤولية ، من الامام الى الخادم فهي مسؤولية ، و ان اختلفت فشتان بين مسؤولية الامام و مسؤولية الخادم ، فانها لا تخرج عن كونها مسؤولية ، بهذا الشعور تربى المسلمون و لو اردنا استعراض حياة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد لكانت و بانث لنا حياتهم مرأة صافية صادقة و في سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خلافته ما يجلى هذه التربية الاسلامية في تقدير المسؤولية الادبية و التحرى من أجلها حتى انه لما لم يخل بها خشى ان يكون قد اخل فكانت خلافته مضرب المثل لا في العدل فحسب بل في اعتبار المسؤولية . و شرح ذلك يطول . و من هؤلاء أبو لبابة الذي كان له موقف ثان بعد موقف المحاكمة النفسية و هو شعوره باجلاله بالمسؤولية الادبية لا بعد ان راجع نفسه مراجعة شاقة بل بعد تلك المحاكمة الاكيدة حين قال : و الله ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله و رسوله .

و لم يكتف أبو لبابة بشئ واحد في جزاء ما رآه خيانة بل صنع أشياء عدة فإنه أول الامر توارى من النبي صلى الله عليه وسلم ففى المواهب اللدنية للقسطلانى : (ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يات رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه لوجاء للنبي صلى الله عليه وسلم

لعرف تاديبه فانه عليه الصلاة و السلام لما بلغه خبره و كان قد استبطاه قال اما لو جاءني لاستغفرت له و اما اذ فعل ما فعل فما انا بالذي اطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه) ثم مع هذا التوارى تولى عقاب نفسه بنفسه و ربطها بسلسلة ربوض (٢) و بقى على تلك الحال أياما ممتنعا عن الطعام و حتى عن الشراب حتى ذهب سمعه و كاد يذهب بصره و مع ذلك لم يخل بالواجبات الدينية فكانت تحمله ابنته او امرأته اذا حانت الصلاة ، و النبي صلى الله عليه وسلم و ان أوكل أمر توبته الى الله فانه شق عليه حاله و لهذا لما نزلت عليه توبة ابي لبابة ضحك من السحر حتى قالت له ام المؤمنين : يا رسول الله مم تضحك و من ادراكها سرور النبي صلى الله عليه وسلم بتوبة ابي لبابة أحببت ان تزفها بشرى الى ابي لبابة .

و بعد أن تاب الله عليه بقوله عز من قائل : (و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) (١٠٢) التوبة - و هي أرجى آية لهذه الامة و هي عامة في الامة الى يوم القيامة و بعد أن حله النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ان من توبتي ان أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب و ان انخلع من مالي كله صدقة الى الله و رسوله فقتل صلى الله عليه وسلم : يجزيك يا ابا لبابة الثالث . فأبوللبابة حكم على نفسه بالغرامة و بالنفي من دار قومه ، و النفي أشد الاشياء على النفس و مع ذلك حكم به على نفسه فلو قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك البارح دار قومه و لا انخلع من ماله كله .

و أى حكم أقسى من هذا الحكم ، لمجرد اشارة الى العلق بأنه الذبح دون التصريح و لعلمهم ففهموا ذلك أو لم يفهموا .
ان هذا التركيز التربوي الاسلامى ما أحوج المسلمين اليوم اليه حتى ترجع لهم الثقة بانفسهم فضلا عن غيرهم فان الضمير لمقروح من فقدان هذا الامر الا من عصمه الله .